

الفصل الأول

نظرات في نشأة التاريخ العربي الإسلامي
رؤية في تحديد الأسس والمنطلقات

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

ازدهرت العراق خلال العصور العباسية الأولى، فأدى هذا الازدهار إلى توافر مبررات مهمة وأساسية لنشأة الكثير من العلوم الإنسانية والصِّرفة، ومرد ذلك للحاجات الفكرية والحضارية للمجتمع الإسلامي في العراق، ولعل من أهم هذه الحاجات علم التاريخ^(١). ولا شك أن الباحث في الحضارة يدرك أهمية دراسة الفكر التاريخي في العراق، لإمكان كشف الأسس التي أدت إلى نشوء فروع وحقول عديدة للمعرفة الإنسانية، خاصة وأن للتاريخ والحضارة مكانة في تدوين الإنجازات الحضارية العظيمة للعراق في ظل الخلافة العباسية، وبيان دوره في بناء الحضارة الإنسانية، ولعل الإنتاج العلمي الزاخر للمؤرخين العرب في العراق في تلك الحقبة الثرية^(٢) كان حائط صدٍّ قوي ضد كتابات المستشرقين الذين سعى معظمهم إلى النيل من الحضارة العربية الإسلامية، وفقاً لنظرياتهم وفلسفاتهم التي اتضح لاحقاً أنها مشبوهة إلى حد كبير.

وبعد الفتح الإسلامي للعراق، وبعد الاستقرار العربي في حاضرتي الكوفة والبصرة؛ وفيما بعد في حواضر بغداد وواسط؛ نجد أن هذه الحواضر صارت بمثابة مراكز إنطلاق أساسية للحركة الفكرية الناهضة للحضارة العربية الإسلامية^(٣)، وكان للتاريخ نصيب منها^(٤)، حيث تهيأت مجموعة عوامل ساهمت في بلورة علم التاريخ ومن أهم هذه العوامل ما يلي:

عندما تم اختطاط الكوفة والبصرة؛ لعب البعد القبلي دوراً حاسماً في رسم المعالم

(١) ابن النديم : الفهرست، ص ٣٣٩ وما بعدها؛ وانظر : أحمد رفاعي : عصر المأمون، القاهرة، ١٩٢٧م، ص ٣٧٥ وما بعدها ؛ عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٥، ١٩٨٦م، ص ١٥٦، ١٥٧ ؛ حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٨٤ وما بعدها .

(٢) عن ذلك بالتفصيل أنظر : محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار الانتشار العربي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ٥ ص ١٩ وما بعدها، ص ٩٧ وما بعدها.

(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام (نشأة العلوم في العصر العباسي الأول)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٧٧-٨٥.

(٤) نفسه، ص ٣١٩-٣٦٠.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

العمرانية لهما، فتم تقسيمها حسب القبائل العربية الوافدة من الجزيرة العربية، فانعكس تأثير هذا التقسيم القبلي على الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والعلمية، ولذلك كان من أهم ما نتج عن علماء هذه المرحلة الكتابة في الأنساب والمآثر والأخبار والأجداد والأيام والشعراء، وكل ما يخص القبيلة في كافة شئونها^(١)، ومن هنا يمكن القول إن مدرسة الكوفة والبصرة كانتا بمثابة المنبع الأول لنشأة المدرسة التاريخية في العراق، التي صُغت في البداية بالاتجاهات القبلية كنتيجة طبيعية للتأثر بالتقاليد القبلية، ويبقى السؤال: هل استمر الاتجاه القبلي في التدوين التاريخي في هذه الصورة؟

يمكن القول بأن الاتجاه القبلي تأثر إلى حد كبير باتجاهات المحدثين من حيث الشكل والمضمون والمنهج، وستتناول هذه القضية لاحقاً.

ومما يجب التأكيد والإلحاح عليه؛ تلك الفكرة العظيمة التي جاء بها الإسلام، ألا وهي فكرة (الأمة)، تلك الفكرة التي أثّرت تأثيراً قوياً في منهج كتابة التاريخ العربي الإسلامي، فقد حدث تحول كبير عن منهج الكتابة القبلية، باعتبار أن القبيلة هي (نواة الأمة) إلى التركيز على الأمة، فتم التحول من تدوين مآثر القبيلة (الأمة الصغيرة) إلى تدوين الأخبار والقصص التي تتعدى حدود القبيلة لتشمل المجتمع العربي والعالمي كله، ولذلك نجدهم يتحولون من حدود الرقعة الجغرافية للعراق إلى كتابة تاريخ العرب في جزيرتهم، وفي اليمن والشام ومصر، ومن ثم عبّروا عن روح الأمة وليس القبيلة التي كانت نواة الكتابة التاريخية^(٢).

ومن الإنصاف التأكيد على أن التوجه نحو كتابة التاريخ الإسلامي كان قد ظهر وبدت ملامحه بوضوح في المدينة المنورة، مقر هجرة النبي ﷺ، وما لبث أن تأثرت كافة الأمصار بطبيعة الكتابة التاريخية بالمدينة النبوية، التي ركزت على تدوين سيرة الرسول الأعظم ﷺ، وتدوين أعماله، ومغازيه^(٣)، وكان منهج الكتابة التاريخية للمدينة النبوية يركّز على الإسناد

(١) عبدالعزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، ١٩٦٠م، ص ١٢٣.

(٢) شاکر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط ١٩٨٣م، ج ١ ص ٢٠٧ وما بعدها؛ وانظر: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار الانتشار العربي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ٢ ص ٢١ وما بعدها.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت، ص ٥٤.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

تماماً كما في علم الحديث، إلى جانب الاهتمام بقصص الأنبياء والأمم السابقة التي تناولها القرآن الكريم.

وكان أول من اهتم بهذا في المدينة النبوية أبان بن عثمان (ت ١٠٥هـ/٧٢٣م)، وهو أول من اهتم بمغازي الرسول ﷺ^(١)، ثم جاء من بعده محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ/٧٦٨م)، والذي نجح في وضع شرائط كتابة السيرة النبوية، فخرج عن منهج المحدثين من أهل المدينة في كتابة السيرة، حيث استهل كتابه بذكر بدء الخليفة^(٢)، وهو ما عده أهل الحديث خروجاً عن نطاق الحديث النبوي، وهو ما جعل ابن إسحاق يتعرض لنقد شديد، حيث يرى العلامة الدكتور بشار عواد معروف أن كُتَّاب المغازي كانوا محدثين قبل أن يكونوا مؤرخين، ولذلك جاء اهتمامهم بتاريخ المغازي باعتباره جزءاً من الحديث وروايته، في الوقت الذي اهتم فيه ابن إسحاق بالجانب التاريخي أكثر، حيث أطلق مصطلح (السيرة) ليكون أكثر اتساعاً وشمولاً مع بقاء الحديث هو المكوّن الأساس في المادة التاريخية للسيرة، فإن بعض معاصريه لم يقبلوا روايته ومنهم مالك بن انس الذي طعن في ابن إسحاق ولقبه بالدجال^(٣).

هذا التطور في كتابة التاريخ الإسلامي انتقل أثره إلى مدرستي البصرة والكوفة، واللذان تأثرتا بمنهج المحدثين من حيث التمسك بالإسناد في كتابة المادة التاريخية، لدرجة أن أصبحت الأسانيد تتقدم الرويات التاريخية، وهو ما يمكن ملاحظته بوضوح عند علي بن محمد المدائني البغدادي (٢٢٥هـ/٨٣٩م)، ومصعب بن عبدالله الزبيدي المدني نزيل بغداد (ت ٢٣٦هـ/٨٥٠م)، وأحمد بن يحيى البلاذري البغدادي (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، ومحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) وغيرهم كثير^(٤).

(١) يوسف هورفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٣-١٠.

(٢) أنور زناتي : المرجع الشامل في مصادر التاريخ الإسلامي والوسيط، دار الأيقاف العربية، القاهرة، ٢٠١٦م، ص ٢٢.

(٣) مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة ترجمة حسين نصار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٩٦.

(٤) نفسه، ص ٩٧-١٣١.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

وتبقى هنا القضية الجديرة بالتناول، فاستعمال الإسناد في كتب التاريخ والأدب والشعر لم يكن بنفس الدقة التي استعمل بها في مصنفات الحديث الشريف، وذلك - بلا شك - عائد إلى الأهمية القصوى للحديث الشريف وعلوم السنة بإجمالها باعتبارها ثاني مصدر من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن البدهي أن الاهتمام بعلم التاريخ لم يكن بنفس قدر الاهتمام بعلوم السنة النبوية، وهو ما سمح بالتساهل في أسانيد الروايات والأخبار التاريخية التي لا علاقة لها بالحديث.

بل نستطيع القول إن علماء الحديث قد ابتكروا علماً فريداً على مستوى الحضارة الإنسانية قاطبةً، وهو علم (الرجال) أو بشكل أكثر دقة علم (الجرح والتعديل)، وعلم (الرواية والدراية)، وهي العلوم الفريدة من نوعها على مستوى العالم المعنية بتحري الدقة الصارمة في الكشف عن الأفراد الذين يشكلون سلسلة (السند) أو بلغة أهل علم الحديث سلسلة (العنعنات)^(١).

نقول إن هذه العلوم نجحت في كشف المزورين، والمزيفين، وسيئي النية والقصد، والشعوبيين، وأعداء الأمة الذين أرادوا الدس على السنة النبوية، وكان تنبّه علماء الحديث إلى هذا، ونجاحهم المثير للإعجاب في فرز الصالح من الطالح، والسمين من الغث، والشمين من الرديء، وبقيت لدى علماء الحديث وجامعيه الكثير والكثير من الروايات والوقائع التي افترأها (المجروحون)، و(المشكوك في ذمهم) و(المغتَمَرُونَ في دينهم)، أهملها هؤلاء العلماء، ولم يعيروا لها بالاً، ومن ثم رأينا المؤرخين دوماً يرددون في كتبهم قول سفيان الثوري عن أهمية التاريخ في معرفة الكذابين حيث قال: "لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ"^(٢)، ولا شك أن مثل هذه الروايات والوقائع المدلّسة عن تلك الفئة من رواة

^(١) عن ذلك بالتفصيل أنظر: تقى الدين على السبكي: قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين، تحقيق عبدالفتاح ابو غدة، دار الوعي، حلب، ط ٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

^(٢) السخاوي: الإعلام بالتبويخ لمن ذم التاريخ، تحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، د.ت، ص ٢٣.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

الحديث كانت بمثابة مادة شيقة تدخل في باب النميمة والتعريض بالناس من جهة، والمبالغة والتهويل من جهة ثانية، والتهوين والخط من جهة ثالثة، من مثل تلك الروايات التي اعتمدها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه ذائع الصيت (الأغاني^(١)).

إن هذه القضية التي نثيرها في هذا الصدد تبدو بمثابة إنذار أو إشارة تحذير من كثير من الوقائع المشار إليها التي تم دسها بشكل أو بآخر داخل مصنفات المؤرخين، وهو ما يستوجب رفع مؤشر نقد الرواية التاريخية وفحصها وتنقيحها إلى أبعد درجة ممكنة لتنقية تلك المصنفات مما لحقها من ضعف في وقائع عديدة تمس كثيراً من رموز الأمة^(٢)، وخير مثال على ذلك، ما تم تطبيقه مني عملياً في التعامل مع الرواية في رسالتي للماجستير عن الحياة العلمية في عصر الخليفة الناصر لدين الله، وبخاصة فيما يتعلق بدس مجموعة من الفُرى التي ساقها عز الدين بن الأثير.

إن تأثر مؤرخي العراق بمدرسة المدينة، واعتمادهم منهج المحدثين في المدينة النبوية؛ دفعهم إلى اعتماد النقد، وترجيح بعض الروايات على بعضها الآخر، رغم الهنات السابق الإشارة إليها، وهو ما قوى ملكة النقد التاريخية لدى الإخباريين والمؤرخين، كما استفادوا أيضاً من مصنفات نقاد الأدب والشعر الذين بذلوا غاية جهدهم في إثبات الشعر الصحيح من الشعر المنتحل^(٣).

لقد تأثر مؤرخو العراق بمنهج مدرسة المدينة النبوية التي سعت إلى تناول التاريخ منذ بدء الخليقة للوصول إلى سيرة النبي ﷺ، ومن ثم تناول التاريخ العربي الإسلامي، وإلى زمن متأخر من عمر الخلافة العباسية نجد هذا المنهج متبعاً في كتابات جميع المؤرخين، وإن كانوا

(١) محمد أحمد خلف الله : صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٢م، ص ٢٤٧-٢٥٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول أهمية علم التاريخ وفوائده أنظر : حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار الرشد، القاهرة ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٣٥ وما بعدها .

(٣) عن قضية انتحال الشعر وأسبابها أنظر : طه حسين : في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م، ص ٤٢-١٢٤.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

قد اعتمدوا على الطبقة السابقة عليهم من خلال النقل الحرفي، ولم يكن هذا معيياً عندهم، ولم يتصد لهذه الظاهرة أيُّ من النقاد، وللتمثيل على ذلك ما فعله ابن الأثير عندما نقل نقلاً حرفياً عن ابن جرير الطبري، كما اعترف بقلمه في مقدمة كتابه (الكامل في التاريخ) قائلاً: "فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري"^(١) إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شيء مكانه فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه. فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ووضعت كل شيء منها موضعه"^(٢).

ومن بين العوامل التي أدت إلى اكتمال صورة المدرسة التاريخية العراقية؛ هو ذلك الصراع الذي احتدم بشدة بين العرب والفرس، فقد كان القرب الجغرافي للكوفة والبصرة وبغداد من الفرس ذا تأثير سلبي في تأثر المجتمع العراقي بالكثير من عادات الفرس

(١) هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر (٢٢٤ - ٣١٠) - (٨٣٩ - ٩٢٣ م). المفسر، المقرئ، المحدث، المؤرخ، الفقيه، الأصولي، المجتهد. ولد بآمل طبرستان في آخر سنة ٢٢٤ هـ أو أول سنة ٢٢٥ هـ وطرف الأقاليم واستوطن بغداد. واختار لنفسه مذهباً في الفقه. من تصانيفه: جامع البيان في تأويل القرآن (وهو المعروف بتفسير الطبري)، وتاريخ الأمم والملوك (وهو المعروف بتاريخ الطبري). وتهذيب الآثار (طبع منه ثلاث أسفار بتحقيق الأستاذ محمود شاكر) * اختلاف الفقهاء، وآداب القضاء والمحاضر والسجلات. انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م، ج ٢ ص ٦٢ - ٦٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢ م، ج ١ ص ٥٧ - ٥٧٨، النووي. تهذيب الأسماء واللغات، إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة - تصوير دار الكتب العلمية - بيروت، ج ١ ص ٧٨، ٧٩، ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م، ج ٦ ص ١٧٠ - ١٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الفكر العربي، بيروت، ج ١ ص ٦، ٧.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

وطرائقهم الاجتماعية، كما كان اختلاط العناصر غير العربية بالعرب في حواضر العراق مبرراً قوياً لظهور التنافر والتجاذب بين أبناء الجنسيات المختلفة، وهو ما طفا على سطح المجتمع العراقي متمثلاً في ظاهرة (الشُعوبية^(١))، حيث يميل كل عنصر إلى الانتصار لأبناء عنصره على حساب غيره، وهو ما دفع إلى تغلغل هذه التوجهات السلبية في الإنتاج العلمي لعلماء العراق طوال فترة التاريخ العباسي، وهو أمر يجب رصده من الباحثين المعاصرين المتصدين لدراسة التاريخ العباسي، والانتباه له جيداً، فهو بمثابة "الشراك الخداعية" التي تفتك بحسني النية من الباحثين عندما يتداولونها في بحوثهم دون تمحيص.

لقد دخلت الإسرائيليات، والروايات الفارسية، وآراء أصحاب الفرق الكلامية، والمذاهب السياسية إلى الإنتاج العلمي، وهو ما أثر في تنوع ميادين الكتابة التاريخية، وهذا الصراع لم يكن موجوداً لدى الجيل الأول من الرواة والإخباريين، هذا الاحتدام الشعبي سعى جاهداً إلى الانتقال من العرب، ومحاولة الإساءة إلى دورهم في الحضارة الإنسانية، وهو نفس التوقيت الذي أشعر العرب بأهميتهم، وأهمية دورهم في نشر الرسالة الخالدة لأنحاء العالم، وشعروا بشرف هذه المهمة، وهذا الدور، وهو ما أفرز في النهاية اكتمال المنظور الكلي للأمة المنبثق في الأساس من منظور القبيلة، كل هذا أوصل إلى الاهتمام بالتاريخ العربي في كافة الأمصار، وعاد المؤرخ إلى الاهتمام بالنسب العربي لأهميته في حياة المجتمع العربي والإسلامي، فظهرت المصنفات التاريخية التي تركز على الأجداد العظيمة في تاريخ العرب، وتألّف المصنفات للرد على الشعوبية وطعنهم في العرب.

ومن ضمن العوامل المؤسّسة لنشأة علم التاريخ العربي الإسلامي؛ ذلك النهوض الاقتصادي والإداري، والازدهار الحضاري الذي ساد مع انتشار الفتوح الإسلامية في أصقاع العالم، وهو ما دفع إلى التصنيف في جوانب ذلك النهوض، سواء في كل ما يتعلق بالزكاة والخراج والأموال والزراعة والحرف الصناعية والتجارة وتبادلها مع الأمصار

(١) عن أثر الشعوبية في ظهور العديد من الحركات الهدامة في عهد الدولة العباسية أنظر : حسن الباشا : دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٥٢-٥٩.

المجاورة^(١).

ويضاف إلى هذه العوامل أيضاً؛ نشأة المدن والخواضر في كل أنحاء العراق، فانتشر نوع من التصنيف التاريخي يتعلق بتواريخ المدن، ومدى اعتزاز أبناء كل مدينة بأنفسهم في مواجهة الشعوبيين^(٢).

وكان للعوامل السياسية أثرها الفعال في نشأة التاريخ العربي والإسلامي، وكان لتشعب العوامل السياسية أثره الكبير في تطور حقول التدوين التاريخي، فالأحزاب السياسية المناوئة للعباسيين وعلى رأسها الأمويين؛ أثارت قضايا الإمامة والخلافة، وما نتج عنها من تطورات، فذهب كل مؤرخ إلى التعبير عن موقفه السياسي والمذهبي، فأبو مخنف الغامدي الأزدي (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٣م) كان علويّ الميل، وأحمد بن يحيى البلاذري كان عباسيّ التوجّه، وكان عوانة بن الحكم الكلبي أمويّ التوجّه يضع الأخبار لبنى أمية، وقيل بل كان علويّاً يأسف لفشل محمد بن عبدالله المعروف بمحمد النفس الذكية^(٣).

وكان للعامل الجغرافي أثره في اتجاهات الكتابة التاريخية، وكان للعامل الإداري أثره أيضاً في الكتابة في هذا التخصص الفريد المتميز، فقام المؤرخون بالتصنيف في الإدارة

(١) من أشهر من صنف في هذا المضمار أبو يوسف صاحب أبي حنيفة الذي صنف كتابه الشهير الخراج، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم، ورسالة الصحابة لابن المقفع والتي تدور حول الجند والقضاء والخراج، وكذا أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتاب الأموال، وابن زنجوية صاحب كتاب الأموال، والداوودي صاحب كتاب الأموال، والخرزاعي التلمساني صاحب كتاب تخريج الدلالات السماعية على ما كان في عهد النبي من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية. أنظر: عبد الباقي السيد عبد الهادي: كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهري وأثره في الحضارة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٧م، ص ٨١-٨٩.

(٢) مثل تاريخ البصرة لابن دهقان، والبصرة لعمر بن شبة، وبغداد لأحمد بن أبي طاهر، وبغداد لابن إسفنديار، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وغير ذلك مما يخص مدن الشام ومصر والأندلس وخلافه. أنظر: السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص ١٥٤، ١٥٣؛ عبد الباقي السيد عبد الهادي: التدوين التاريخي عند ابن حزم الظاهري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٧م، ص ١٥٥-١٥٧.

(٣) مرغليوث: دراسات عن المؤرخين العرب، ص ٩٥.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

والتنظيم، فكتبوا عن تاريخ الخلفاء، والوزراء، والأمراء، والولاة، وقادة الجيوش، والقضاة، وكبار التجار، وأصحاب الدواوين^(١).

وكان لتأثير القرآن الكريم على المؤرخين دوره في انتشار الكتابة التاريخية البائدة منذ بدء الخليقة إلى التاريخ الذي يعيشه المؤرخ بالفعل، وهو ما يؤكد النظرة الشمولية الموسوعية العالمية للمؤرخين آنذاك، فقد أكد القرآن الكريم على ضرورة التأمل في الكون، والتعرف على الأمم السابقة، وتتبع أخبارها للحصول على العظات والدروس، وهو ما شجع فريقاً كبيراً من المؤرخين على اعتماد هذا الشكل من الكتابة التاريخية^(٢).

وفي الأخير؛ فإن علم التاريخ في العراق العباسية كان عربي الأصل والنشأة، وبدايته من المدينة المنورة، ومنها انتقل إلى العراق، حيث تطور بفعل العوامل المشار إليها، وهو ما أدى بعد ذلك إلى استقلال الكتابة التاريخية بعلم خاص مكتمل العناصر والأسباب والضوابط، بل والمنهج أيضاً.

أنواع الكتابة التاريخية:

١ - المغازي والسير:

كما سبقت الإشارة؛ فقد تم الاهتمام بالسنة النبوية باعتبارها المصدر الثاني للتشريع، وكان الاهتمام بكل ما صدر عن النبي ﷺ من قول وفعل وتقرير، إلى جانب حياته، وأعماله، وما جرى في أيامه من أحداث تخص أمور الدعوة (السيرة)، والسيرة كمصنّف تعني أن أقواله وأفعاله ﷺ هي المثل الأعلى الذي يجب الاقتداء به، ومن ثم لا بد من جمعها وتدوينها، فالتشريع والتنظيم الإداري لدولة الإسلام الناشئة بالمدينة المنورة أدّى إلى الاهتمام بالسنة عموماً، وبالحديث خصوصاً، إضافة إلى الاستمتاع بكل ما يتعلق بالرسول ﷺ، وكل هذا أدى

(١) عن ذلك بالتفصيل أنظر: مقدمة ميخائيل عواد لكتاب رسوم دار الخلافة لأبي الحسين هلال الصابىء، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٤٧-٦٧؛ عبد الباقي السيد عبد الهادي: كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهري، ص ٨١-١٥٥.

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٦٩-١٧٤.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

إلى ظهور مصنفات السيرة^(١).

وقد أُطلق على الدراسات الأولى لحياة الرسول ﷺ (المغازي) والمقصود بها غزوات الرسول وحروبه، ولكن في الواقع - وبعد استقراء مصنفات السيرة والمغازي - يتضح أنها تناولت كل ما يتعلق بالفترة التي عاشها ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وأول من كتب في هذا عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ/ ٧١٢م)، واكتملت عند الزهري (ت ١٢٤هـ/ ٧٤١م) وتلميذه موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ/ ٧٥٨م)^(٢).

واللافت أن كل من كتبوا في المغازي هم في الأصل محدّثون باستثناء ابن إسحاق، ومن أهم من كتبوا في السيرة بعد ابن إسحاق في كتابه (السيرة والمبتدأ والمغازي)؛ جاء محمد بن عمر الواقدي المدني نزيل بغداد (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) في مصنفاته (السيرة)، (أزواج النبي)، (وفاة النبي)، وكتب المدائني السابق الإشارة إليه؛ مصنفات (صفة النبي)، (أمهات النبي)، (أزواج النبي)، (المغازي)، بالإضافة إلى السيرة الواسعة التي كتبها محمد بن سعد البصري نزيل بغداد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) في مقدمة كتابه (الطبقات الكبرى) وهو المشهور بطبقات ابن سعد^(٣).

٢ - تاريخ الأنساب والقبائل والأسر:

ويمكن تقسيمها إلى ما يلي:

(أ) تاريخ الأنساب:

وهو تاريخ مهم في حياة المجتمع العربي الإسلامي على مر العصور، لتناسبه مع طبيعة العرب المهتمة بأمور الأصول والأنساب والحرص على الانتماء القبلي، وبدت أهمية مصنفات الأنساب في كونها وسيلة ردع للشعوبيين المناوئين للأصل العربي، مع ملاحظة قلة الاهتمام

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٣١٩.

(٢) يوسف هوروفتس : المغازي الأولى، ص ١١ وما بعدها ؛ وانظر : السيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون، ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) يوسف هوروفتس : المغازي الأولى، ص ٧٥ وما بعدها .

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

بمصنفات الأنساب في العصر العباسي المتأخر، وصار الاهتمام منصباً على المهنة أو الحرفة، أو المكانة العلمية، والمذهب، ولذا قال ابن الأثير: "فقد رأيت العلم بالأنساب دائراً، والجهل به ظاهراً، وهو مما يحتاج طالب العلم إليه ويضطر الراغب في الأدب والفضل إلى التعويل عليه. وكثيراً ما رأيت نسباً على قبيلة أو بطن أو جد أو بلد أو صناعة أو مذهب أو غير ذلك وأكثرها مجهول عند العامة غير معلوم عند الخاصة فيقع في كثير منه التصحيف ويكثر الغلط والتحريف. وكانت نفسي تنازعني إلى أن أجمع في هذا كتاباً حاوياً لهذه الأنساب جامعاً لما فيها من المعارف والآداب فكان العجز عنه يمنعي والجهل بكثير منه يصدني، ومع هذا فأنا ملازم الرغبة فيه معرض عما يباينه وينافيه، كثير البحث عنه والاعتباس منه^(١)".

كان من أكثر مؤرخينا القدامى في المدينة اهتماماً بتاريخ الأنساب محمد بن سعد في طبقاته، والسابق الإشارة إليه، وخليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، وهما من علماء الحديث، ومن ثم نراهما يذكران الصحابة على أساس عشائريهم وقبائلهم بعد تقسيمهم لطبقات.

ومن علماء العراق في تاريخ الأنساب حماد بن أبي ليلى (ت ١٦٤هـ/٧٨٠م)، وكان من أشهر الرواة في عصر الأمويين، وخالد بن طليق (كان حياً سنة ١٦٦هـ/٧٨٢م)، ومحمد بن السائب الكلبي الكوفي (١٤٦هـ/٦٧٣م)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت ١٩٣هـ/٨٠٨م)^(٢).

وكان سليمان بن أبي شيخ الواسطي (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) من علماء النسب والتاريخ. وعمر بن مطرف الكاتب (ت في عهد الرشيد) صنف (مفاخرة العرب)، و(مفاخرة القبائل في النسب)، ويُعد هشام بن محمد الكلبي الكوفي (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م) ضابطاً لعلم الأنساب، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) صاحب سمر ونسب، وصنّف (جمهرة

(١) أنظر: اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، ج ١ ص ٧.

(٢) ابن النديم : الفهرست، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ١٣٢-١٤١ ؛ وانظر : السيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٤٨-٥٠.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

النسب)، و(تسمية ما في شعر امرئ القيس من الرجال والنساء وأنسابهم)، واستخدم ابن سعد في طبقاته النسب، وله كتاب (الفريد في الأنساب)، و(الملوكي في الأنساب)، و(الموجز في النسب)، و(نسب العباديين)، وصنّف محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) كتاباً في أنساب القبائل. أما محمد بن سلام الجُمحي البصري (ت ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م) فقد صنف (نسب قريش). ويعد أحمد بن يحيى البلاذري البغدادي الكاتب (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) من أبرع علماء التاريخ والنسب، ومن أهم وأروع الكتب التاريخية في الأنساب كتابه (أنساب الأشراف)^(١).

(ب) تاريخ القبائل والأسر:

سبقت الإشارة إلى اتخاذ الكتابة التاريخية منحىً قُبلياً، وقام علماء القبائل بتصنيف الكتب والرسائل التي تمجد قبائلهم وتفتخر بها وبمآثرها قبل الإسلام وبعده، وانصبَّ الاهتمام أكثر بتاريخ المتتمين للقبائل والأسر من الحكام والقادة، فصنّف سعيد بن أوس الأنصاري البغدادي (ت ٢١٥هـ/ ٨٣٠م) كتاب (بيوتات العرب) وصنّف عبيد الله سعيد بن الحكم بن أبي مريم (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م) كتاب (نوافل العرب)، وصنف المدائني السابق الإشارة إليه (فضائل قريش)، و(أخبار ثقيف)، و(أشراف عبد القيس)، وغيرها^(٢).

وفي مطلع القرن الرابع الهجري اضمحلَّ الاهتمام بالأنساب والقبائل، ولوحظ ضعف التنظيمات القبلية - كما سبقت الإشارة - حيث تزايد الاختلاط بين العرب بعضهم البعض من جهة، واختلاطهم جميعاً بغير العرب من المولَّدين وأصحاب الأجناس المختلفة، ولذا اقتصر الأمر على التصنيف في أسرة بني العباس، فصنّف أحمد ابن عبد الله بن محمد الثقفي المعروف بابن عماد الثقفي (ت ٣١٩هـ/ ٩٣١م) (رسالة في تفضيل بني هاشم وأوليائهم وذم بني أمية وأتباعهم)^(٣)، وهو المصنّف الذي صنف للخليفة الناصر كتاب (الفتوة)، وقاد هذا

(١) السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون، ص ١٧٨، ١٧٧.

(٢) مرغوليوث: دراسات عن المؤرخين العرب، ص ٩٩.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٠٤.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

التنظيم فترة من الزمن، وصنف محمد بن علي ابن سعيد شيخ ابن العميد الوزير الكاتب كتاب (أخبار العباسيين)، وصنّف غيره كثير تحت هذا العنوان. وكتب الوزير جمال الدين علي بن يوسف القفطي المصري (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) كتاب (سيرة آل سلجوق)، و(تاريخ بني بويه^(١)).

٣- تاريخ الفتوحات:

وهو التاريخ الذي انشغل بالتصنيف في الفتوحات العربية الشاخنة في معظم أرجاء العالم نشراً للإسلام، ودعوةً وتبليغاً لدين الله، وأقدم من صنّف في هذا المجال سيف بن عمر التميمي الكوفي (ت ٢٠٠هـ/ ٨١٥م) كتاب (الفتوح الكبير)، وصنف الواقدي المشار إليه (فتوح الشام)، و(فتوح البلدان)، و(فتوح أفريقيا)، و(فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان^(٢)).

ويُعد المدائني من أشهر المصادر في الفتوح العربية، حيث رجع إليه معاصروه ولاحقوه، فقد صنف ما يقرب من ستة عشر مصنفاً في الفتوح، ومن أهمها: (فتوح العراق)، و(فتوح الأحواز)، و(فتوح الأبله)، و(فتوح الجزيرة)، و(فتوح الشام)، و(فتوح مصر)، و(فتوح برقة)، و(فتوح جرجان وطبرستان).. وغيرها كثير، ولعل من أهم ما تم تصنيفه في هذا المجال كتاب البلاذري (فتوح البلدان^(٣)).

٤- التاريخ الإداري:

وانصبّ الاهتمام بهذا الفرع من الكتابة التاريخية نتيجة استقرار الدولة، وتنامي الأوضاع الاقتصادية والسياسية، والحاجة الملحة لإدارة وسياسة شعوب البلاد المفتوحة ممتدة الأطراف، ومن أهم موضوعات هذا النوع من التاريخ العربي الإسلامي:

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، ط ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج ٢٣ ص ٢٢٧.

(٢) ابن النديم : الفهرست، ص ١٤٢؛ وانظر : مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ص ١٠٦.

(٣) ابن النديم : مصدر سابق، ص ١٤٧، ١٦٠.

(أ) تاريخ الخلفاء:

حيث عالج المؤرخون رقي مكانة ورفعة منزلة خلفاء بني العباس في نفوس المسلمين من السُّنة على وجه الخصوص، فكتب هلال بن الحسن الصابي (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) (رسوم دار الخلافة)، حيث تناول المراسيم المتبعة والأصول والقواعد (البروتوكول) في دار الخلافة. وصنّف العلماء في سيرة الخلفاء وأبنائهم وزوجاتهم وأخبارهم، فكتب الواقدي (السقيفة وبيعة أبي بكر)، و(سيرة أبي بكر ووفاته). وصنف المدائني (تسمية من تزوج من نساء الخلفاء)، و(أخبار الخلفاء)، و(تاريخ الخلفاء)، و(أخبار السفاح)^(١).

وصنف أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) كتاب (من احتكم من الخلفاء إلى القضاة). وصنف أحمد بن أبي طاهر طيفور البغدادي (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) كتاب (أبواب الخلفاء)، و(أخبار المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر). وصنف محمد بن يحيى بن عباس الصولي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) كتاب (الأوراق في أخبار الخلفاء). وصنف ابن العمري؛ محمد بن علي بن محمد (ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م) كتابه (الأنباء في تاريخ الخلفاء). أما تاج الدين؛ علي بن أنجب، المعروف بابن الساعي (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) فقد صنّف كتاب (تاريخ نساء الخلفاء من الحرائر والإماء)، و(أخبار الخلفاء)، و(مناقب الخلفاء)^(٢).

(ب) تاريخ الوزراء:

ومن بين من صنفوا في هذا الفرع ابن عمار الثقفي البغدادي (ت ٣٠٩هـ/٩٢١م)، الذي وضع كتاب (الزيادات في أخبار الوزراء). والجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس، ت ٣٣١هـ/٩٤٢م)، الذي صنف أهم مصدر تاريخي في هذا الموضوع، وهو (الوزراء والكتاب). وصنف محمد بن يحيى بن العباس الصولي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) كتاب (الوزراء).

(١) ابن النديم : الفهرست، ص ١٤٦، ١٤٧.

(٢) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ، ص ١١٦، ١١٧.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

وصنف أبو هلال الصابي كتاب (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء). وكتب ابن الساعي (تاريخ الوزراء)، و(أخبار الوزراء^(١)).

(ج) القادة والأمراء:

ومن أهم مصنفات هذا الفرع كتاب أبي عبيدة (أخبار الحجاج)، وكتاب (مسلم ابن قتيبة). وصنف المدائني كتاب (عبدالله بن عامر الحضرمي)، و(عبدالله بن عامر كرز)، و(أخبار الحجاج ووفاته)، و(مسلم بن قتيبة). وصنف محمد ابن يزيد المهلب (المهلب وأخباره وأخبار وفاته). أما الصولي فصنف كتاب (مناقب علي بن الفرات^(٢)).

(د) القضاة:

صنف أبو عبيدة (قضاة البصرة). وصنف الهيثم بن عدي الكوفي (ت ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م) كتابه (قضاة الكوفة والبصرة). وصنف المدائني (قضاة أهل البصرة)، و(قضاة أهل المدينة). وكتب وكيع تلميذ الشافعي (أخبار القضاة وتاريخهم وأحكامهم^(٣)).

٥- التاريخ العام:

ومن أهم من صنف في هذا الفرع المهم من التاريخ العربي الإسلامي؛ الواقدي في كتابه (التاريخ الكبير)، وأبو عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي (ت ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م) الذي صنف كتابه (التاريخ)، وكتب عبدالله بن محمد بن أبي شيبه الواسطي (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م) كتاب (التاريخ)، وأما أحمد بن يعقوب بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) فقد صنف أيضاً كتاب (التاريخ) وهو كتاب متميز، تناول في قسمه الأول التاريخ العالمي قبل الإسلام، ما أعطى هذا الكتاب أبعاداً ثقافية وحضارية غاية في الأهمية، وصنف ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) كتابه (عيون الأخبار)، و(المعارف) وهذا الأخير جمع فيه بين فكرة التاريخ العالمي وفكرة الوحدة الثقافية للأمة العربية الإسلامية،

(١) السخاوى : الإعلان بالتويع، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) ابن النديم : الفهرست، ص ١٤٦.

(٣) لمزيد من التفاصيل أنظر : السخاوى : الإعلان بالتويع، ص ١٣٢، ١٣١ ؛ مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ص ١٠١.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

فواجه بهذا الكتاب الحركة الشعوبية المتقدمة في عصره، أما أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) فقد صنف (الأخبار الطوال)، وأكد فيه دور العرب وغيرهم في التاريخ. أما كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) فقد عبّر فيه عن قضية تكامل الرسائل في التاريخ، ويؤكد فيه أيضاً إرادة الله في الفعل البشري، ويعد كتاباً متميزاً في مجاله، وقد ذيل عليه أكثر من مؤرخ كالهمداني؛ محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١هـ/١١٢٨م)، وابن طيفور، ثابت بن سنان (ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م^(١)).

جدير بالذكر أن المسعودي (علي بن الحسين، ت ٣٤٦هـ/٩٧٣م) قد صنف كتابيه (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، و(التنبيه والإشراف)، وهما من أهم كتب التاريخ العام^(٢)، وصنف ابن مسكويه؛ أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) كتابه الأشهر (تجارب الأمم وتعاقب الهمم)، وذيل عليه أبو شجاع، محمد بن علي البغدادي (ت ٥٩٠هـ/١١٩٣م) كتابه المعروف (تاريخ ابن هدمان).

وصنف أبو الفرّج؛ عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) كتابه المشهور (المنتظم في تاريخ الأمم والملوك)، وهو أول من فصل الحوادث التاريخية عن الوفيات، ووضع الوفيات بعد نهاية أحداث كل سنة يذكرها، ورتبها على حروف المعجم، كما كتب سبطه، شمس الدين، يوسف بن قزاوغي، الشهير بسبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) كتابه المشهور (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان)، حيث ذيل عليه اليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م^(٣)). أما المؤرخ الأشهر عز الدين، علي بن أبي المكارم، محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير (ت ٦٣١هـ/١٢٣٣م) فقد صنف الكتاب الأشهر في التاريخ الوسيط (الكامل في التاريخ) وهو من الكتب المرتبة على الحوليات، واتبع منهج ابن الجوزي في التعقيب على كل سنة بذكر الوفيات^(٤).

(١) السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون، ص ٩٧-١٠٤.

(٢) السخاوى: الإعلان بالتوبيخ، ص ١٧٨؛ وانظر: فتحي أبو سيف: محاضرات حول التاريخ ومدارسه في الفكر الإسلامى، دار النهار، القاهرة، د.ت، ص ٣٦.

(٣) السخاوى: الإعلان بالتوبيخ، ص ١٧٩.

(٤) نفسه، ص ١٨٠، ١٧٩.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

أما ابن الساعي؛ علي بن أنجب - السابق ذكره - فقد صنف أشهر مصنفاته، كتابه المعروف بـ (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير)، وهو كتاب كبير يزيد عن ثلاثين جزءاً، ضاعت كلها باستثناء الجزء التاسع الذي حققه العلامة مصطفى جواد، وبضياع هذا الكنز الثمين فقدنا أهم وأصدق شاهد عيان لأحداث سقوط بغداد^(١).

ويُذكر أن من أهم الكتب التاريخية التي تم التذليل عليها كتاب (التاريخ) لثابت ابن سنان بن ثابت بن قرة الصابي (ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م) حيث اشتمل هذا المصنف المهم على الحوادث والوقائع من سنة (١٩٠هـ/٨٥٠م) وحتى سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) وقيل أنه كان في أربعين مجلداً، وذيل عليه ابن أخته هلال الصابي (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م)، حيث انتهى به إلى سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، وذيل عليه ولده غرس النعمة، محمد بن هلال، واستمر به إلى حوادث (٤٧٠هـ/١٠٧٧م)، ثم ذيل عليه ابن الهمذاني إلى سنة (٥١٢هـ/١١١٨م)، وذيل عليه ابن الزاغوني (علي بن عبدالله بن نصر الحنبلي، ت ٥٢٧هـ/١١٣٢م)، وذيله العفيف صدقة بن الحداد (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م) حتى سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)، ثم ذيله عبدالرحمن بن الجوزي إلى سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م)، وذيله أيضاً ابن القادسي إلى سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م).

٦- التواريخ المحلية للعراق والأمصار:

وهي كثيرة ومتعددة من الصعب الإسهاب فيها في هذه العجالة، وسنكتفي بذكر تاريخ بغداد، ونتفأ مما عداها، فقد شاعت خلال الحقبة العباسية ظاهرة ذبول التواريخ على الكتب المشهورة، من مثل كتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، الذي ذيل عليه أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م)، وذيل على ذيل السمعاني؛ أبو عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الديبشي الواسطي (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، كما ذيل عليه ابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) على الخطيب مباشرة بكتابه العظيم (التاريخ المجدد لمدينة السلام وأخبار فضلائها الأعلام ومن وردها من الأنام)^(٢).. وغيرها كثير.

(١) السخاوى : الإعلان بالتوخيخ، ص ١٨٠.

(٢) نفسه، ص ١٥٤، ١٥٣.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

أما ما يتعلق بتاريخ بغداد؛ فقد صنّف طيفور البغدادي (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) كتابه (تاريخ بغداد)، وصنف ابنه عبدالله كتابه (ما زاده على كتاب أبيه في تاريخ بغداد) وتلاههم الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد)، الذي لخصه الإمام الذهبي، ثم ذيل عليه ابن النجار (الذيل على تاريخ الخطيب)، ثم صنف تقي الدين محمد بن رافع السلامي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) كتابه (الذيل على ذيل ابن النجار)، والتذيل عليه لأبي بكر ابن المارستانية، والذيل عليه لابن الساعي.

ومن صنف أيضاً في تاريخ بغداد؛ أحمد بن الطيب السرخسي المقتول زمن الخليفة المعتضد كتابه (فضائل بغداد وأخبارها)، وكتب هلال بن الصابي كتابه (أخبار بغداد) وسماه الحموي بـ (كتاب بغداد^(١)).

٧- التاريخ الاقتصادي:

سعى هذا الفرع من التاريخ العربي الإسلامي في العراق إلى معالجة مختلف المسائل المالية كالعملة والسكة والخراج وأحكامه، بالإضافة إلى معالجة أحكام الأراضي، والملكية الزراعية، فقد كتب أبو يوسف؛ يعقوب بن إبراهيم القاضي (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) مصنفه الشهير (كتاب الخراج)، وصنف أبو يحيى ابن آدم القرشي البغدادي (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) أيضاً (الخراج)، وهناك كذلك كتاب (الخراج) لعبد الملك بن فريد الأصمعي (ت ٢١٦هـ/٨٣١م)، وكذلك هناك كتاب (الخراج وصناعة الكتابة) لقدامة بن جعفر البغدادي الكاتب الناقد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م)، وهناك كثيرون صنفوا في الخراج يضيق المجال عن ذكرهم^(٢).

أما من صنف في الأمور المالية؛ ابن عمر الواقدي الذي صنف كتابه (ضرب الدنانير والدراهم)، و(كتاب الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام البغدادي (ت ٢٢٥هـ/٨٣٩م)،

(١) السخاوي: الإعلان بالتبويب، ص ١٥٤.

(٢) محمد ضياء الدين الرئيس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار التراث، القاهرة، ط ٥، ١٩٨٥م، ص ٤.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

وصنف المدائني كتاب (ضرب الدراهم والصرف)، و(ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) الذي صنف كتابه الفريد (أسواق العرب^(١)).

٨- كتب الرجال:

سبقت الإشارة إلى الربط بين علم الحديث وعلم التاريخ، سواء من ناحية الأسلوب، أو المنهج، أو مدى تأثر المؤرخين بأهل الحديث في الإسناد، حيث امتد هذا التأثير ليشمل تقييم وتقويم الروايات التاريخية.

وسبقت الإشارة أيضاً إلى قضية نحل الروايات ووضعها في علم الحديث، وهو ما أصاب علماء الحديث بالفرع من انتشار هذه الظاهرة، فراحوا ينقحون ويدققون وينقدون ويجرحون ويعدّلون في بعض العنعنات التي سعت إلى الدس على رسول الله ﷺ بسبب المواقف السياسية والمذهبية والشعبوية وغيرها. وكان نشاط علماء الحديث فياضاً في دراسة أحوال الرواة من حيث مواليدهم ووفياتهم وأسمائهم وألقابهم وأنسابهم وميولهم السياسية والمذهبية بل والعقائدية، وبحثوا في آراء الثقات فيهم بتوظيف العلم النادر والفريد (الجرح والتعديل)، وكذا (الرواية والدراية^(٢)).

لقد بذل علماء الحديث جهوداً مضيئة لمجرد التحقق من راوٍ معين فيسافرون إليه شهوراً، ويلتقون بشيوخ الرواية وأقربائهم وجيرانهم للتأكد من مدى صدقه، وعدم اشتهاره بقول الزور، أو شرب الخمر، أو الخوض في الأعراض، ومن ثم تجمعت لدى علماء الحديث مادة ضخمة كان لابد من تصنيفها وتبويبها، وترتيبها ليسهل الوصول إليها عند الحاجة، وتم وضعها في كتب سميت بكتب الرجال، وكتب الجرح والتعديل، ونتج عن هذا أمران في غاية الأهمية:

(١) مرغوليوث: دراسات عن المؤرخين العرب، ص ١٠١.

(٢) عن ذلك بالتفصيل أنظر: ابن حجر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق نور الدين عتر، دار البصائر، القاهرة، ط ١، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م، ص ١٣٤-١٣٩؛ عبدالله الغماري: توجيه العناية لتعريف علم الحديث رواية ودراية، تحقيق صفوت جودة، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

أولهما: أن علماء الحديث قد أهملوا قدرًا كبيراً من تلك المادة الثرية التي ثبت أن بها تدليس سواء من حيث الراوي أو من حيث المادة المروية، فتلقّف بعض المؤلفين هذه المادة ووظفوها في كتابة التاريخ، فانصبغ بعض مصنفات المؤرخين بالكذب والتدليس الذي نجا منه علم الحديث.

الثاني: قام بعض المصنفين في الشعر والأدب والنقد الأدبي والتاريخ والفنون بإعداد مصنفات على نفس طريقة علماء الحديث، بعضها كان متقناً وجيد الإسناد، وبعضها كان غثاً ورديثاً، وكل هذا انعكس بلا شك على الحقيقة التاريخية، وزاد من صعوبة هذه الإشكالية انتشار ظاهرة النقل عن السابقين، فوجد المؤرخ ينقل عن شيخه، أو عن مؤرخ سابق عليه نقلاً حرفياً سواء أشار إلى هذا أم لم يشر، وقد عمدنا في هذا الكتاب إلى إيراد نموذج واحد على هذا الأمر، يتعلق برواية ابن الأثير المتعلقة باتهامه للخليفة الناصر لدين الله العباسي بأنه أغرى المغول بالهجوم على المشرق الإسلامي وإسقاط الخوارزمية الذين كانوا ينصبون دار الخلافة العداء^(١).

وبصرف النظر عن حقيقة هذه الواقعة من عدمها، والتي عاجلناها في ثانياً بحثنا عن الخليفة الناصر، إلا أن المؤرخين المعاصرين واللاحقين لابن الأثير رددوا نفس الفرية نقلاً حرفياً عن ابن الأثير.

الذي يهم في صدد علم الرجال أن انتشرت مصنفات تتناول التراجم، بعضها يحتوي توثيقاً وتخريجاً الرواة، وبعضها لا يرقى إلى مستوى هذه المنهجية الدقيقة، ومن ثم تم ابتكار خمسة أساليب منهجية لتنظيم كتب الرجال فيما بعد، وهي:

(أ) كتب التنظيم على الطبقات:

والمقصود بالطبقة: الجماعة المشتركة في التعليم على يد شيخ معين، مثل كتاب (الطبقات) لعلي بن عبد الله المديني البصري (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م)، وكتاب (الطبقات) لابن سعد^(٢)، و(طبقات القراء لخليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)^(٣)، وكتاب (طبقات

(١) أنظر: الكامل في التاريخ، ج ٩ ص ٣٦١.

(٢) أحمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ٢٣٩.

(٣) مناع القطان: مباحث في علوم الحديث، مكتبة وهبه، القاهرة، ص ٦٤.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

الشعراء) لابن المعتز العباسين و(طبقات الشعراء) لابن السلام، و(طبقات النحويين) للزبيدي (ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) .. وغيرها.

(ب) كتب التنظيم على الأنساب:

وخير مثال لهذا النوع أن يجمع المصنف رواة الحديث الذين هم من قبيلة واحدة، فيذكرهم في موضع واحد، مثل كتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد.

(ج) كتب التنظيم على البلدان:

حيث يقوم المؤلف بتنظيم الرواة على أساس بلدانهم، كما فعل ابن حبان (ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) في كتابه (مشاهير علماء الأمصار)، وكتاريخ نيسابور للحاكم النيسابوري، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى، وتاريخ دمشق لابن عساكر^(١).

(د) كتب التنظيم على حروف الأبجدية:

وهو من أكثر المصنفات انتشاراً لسهولة ويسره في الوصول إلى الترجمة المطلوبة، وخير مثال على هذا النوع (تاريخ بغداد) للخطيب، وكتاب ابن الديلمي (ذيل تاريخ بغداد).

(هـ) كتب التنظيم على تاريخ الوفاة:

وشاع هذا النوع شيوعاً كبيراً كسابقه، وهذا التنظيم أتاح حرية حركة للمؤلف، حيث من الممكن ألا يقتصر على علماء بعينهم في تخصص محدد، بل من الممكن أن يشمل الكتاب علماء في الشعر والقراءات والتفسير والتاريخ والتجارة، والمعلمين، والمؤدبين، بل والأمراء والملوك والوزراء.. وغيرهم.

ومن المصنفات في الوفيات: (وفيات الشيوخ) لأبي الفضل أحمد بن خيرون البغدادي (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، و(الوفيات) لأبي الفتح محمد بن أحمد بن محمد ابن أبي الفوارس البغدادي (ت ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م).

أما ما تم تصنيفه في الثقات والضعفاء من رواة الحديث والتاريخ فهو كثير، ومنه على سبيل المثال (الطبقات الكبرى) لابن سعد، ومن أكثرها أهمية أيضاً كتاب (العلل ومعرفة

^(١) مناع القطان : مباحث في علوم الحديث ، ص ٦٤.

الرجال) للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م).
ومن كتب الضعفاء ما صنّفه الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)
(الضعفاء والمتروكين)، وكتاب (الضعفاء) لابن الجوزي^(١).

نموذج للنقل الحرفي للمؤرخين اللاحقين من سابقهم

هذا نموذج للنقل الحرفي الذي يقوم به بعض المؤرخين اللاحقين من مصادر المؤرخين الذين عاصروهم أو سبقوهم، والملاحظ من هذه النماذج أن النقل قد تم دون تمحيص أو روية أو نقد، ويجب ملاحظة أمر آخر، وهو تأخر معظم الباحثين الناقلين للخبر عن الفترة التي قيل فيها، ومن ثم فهم ليسوا معاصرين للواقعة، وإنما أخذوا دون نقد وتمحيص. وهنا يأتي دور الباحث المعاصر الذي يتصدى للدراسة ذات الأبعاد الحضارية أو التاريخية، حيث يجب أن يقوم بنقد الرواية والتحقق منها، ومقارنتها بغيرها، والاعتماد قدر الإمكان على المؤرخ الذي كان أقرب ما يكون مكاناً وزماناً من الحدث، ولأن إطلالة الباحث على التاريخ تكون من خلال المؤرخين ومصنفاتهم في المقام الأول؛ فإنه يمكن القول إن المؤرخين في هذا المثال الوارد قد انقسموا إلى قسمين في نقلهم للخبر، وذلك على النحو التالي:

القسم الأول: مؤيد للخليفة الناصر مطلقاً.

القسم الثاني: معارض للخليفة الناصر مطلقاً.

والواقع أن القسم الأول من المؤرخين إما كان معاصراً للواقعة، أو كان متأخراً عنها، ولكنه احتكم إلى نظرة موضوعية للأمور، وقرأ الأحداث قراءة صحيحة، وأما القسم الثاني فكان معاصراً لفترة البحث، ولكن لظروف معينة اتخذ موقفاً سلبياً... وسأيره مجموعة من المؤرخين الذين نقلوا عنه دون تمحيص ودون روية.

وكان من المفترض أن نقوم بتتبّع آراء كل المؤرخين حول الخليفة الناصر، وذلك يقتضي استدعاء آراء الباحثين المعاصرين من خلال مراجعتهم التي تم الاعتماد عليها، ولكن خوفاً

^(١) عن ذلك بالتفصيل أنظر: ابن حجر: نزهة النظر، ص ١٤٢ وما بعدها.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

من الاستطراد نكتفي بتسجيل ابتكار الفكرة مع الاكتفاء بإثارة قضية ابن الأثير، وكراهيته المفرطة للخليفة الناصر، التي يبدو منها أن موقف بدر الدين بن لؤلؤ حاكم الموصل آنذاك قد أثر على موقف ابن الأثير المقيم في كنفه، وكان يناصب الخلافة العداء، وأثبتت الأحداث فيما بعد تواطؤ ملوك الأطراف ومنهم حاكم الموصل مع المغول عند اجتياحهم بغداد، ويكفي هنا إيراد مقاطع من أقوال ابن الأثير، ونماذج من أقوال المؤرخين الذين نقلوا عنه، وقالوا بما قال، وكذا إيراد نماذج من أقوال الذين تناولوا الخليفة الناصر بشكل موضوعي، أو بشكل مبالغ في المدح، على أن يتم استكمال هذا المشروع في دراسة مستقلة أكثر شمولاً إن شاء الله.

القسم الأول الذي كان معارضاً للخليفة الناصر فكان أهمهم :

- ابن الأثير: (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

يقول: "ولم يطلق في طول مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً، فخرّب في أيامه العراق، وتفرّق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جردها ببغداد خاصة، ثم أعادها وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسب وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة، وكذلك أيضاً منع الطيور المناسب لغيره إلا ما يؤخذ من طيور، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنساناً واحداً يقال له: ابن السفّ! من بغداد، فإنه هرب من العراق ولحق بالشام، فأرسل إليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه!، وينسب في الرمي إليه، فلم يفعل، فبلغني أن بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع عن أخذ المال، فقال: يكفيني فخراً أنه ليس في الدنيا أحد إلا رمى للخليفة إلا أنا، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور، وكان سبب ما ينسب العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر: فكان ما كان مما لست أذكره فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر^(١)."

- ابن العبري: (١٢٨٤هـ/١٢٨٦م)

"تولَّى الظاهر الخلافة بعد وفاة والده الخليفة الناصر: ثم أظهر من العدل والأمن ما لا يمكن وصفه، وأزال الظلم، وردَّ على الناس أموالاً وأملاكاً جلييلة كانت قد أخذت منهم، وأزال مكوساً كثيرة كانت قد جددت، وارتفع عن الناس ما كانوا ألفوه من الخوف في زمان والده^(٢)."

- ابن شاهنشاه الأيوبي: (٧٣٢هـ/١٣٣١م)

"وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً لهم، خرب في أيامه العراق، وفرَّق أهله في البلاد، وكان يتشيع، وكان منصرف المهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب، ويلبس سراويلات الفتوة، ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك إلا إنساناً واحداً يقال له ابن السفث، وهرب من بغداد إلى الشام، وقد يُنسب للإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد، بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة، ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق ... ولما بويغ ولده الظاهر أظهر العدل وأزال المكوس، وأخرج المحبوسين^(٣)."

- ابن واصل: (٦٩٧هـ/١٢٩٨م)

"وكان رديء السيرة في الرعية، مائلاً إلى الظلم والعسف، فخربت في أيامه العراق، وتفرق أهلها، وأخذ أملاكهم، وكان يفعل أفعالاً متضادة، ويتشيع بخلاف آبائه^(٤)."

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج ١٠، ص ٤٥٣.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت: الأفاق العربية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٢٤٢.

(٣) ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، د. ط، القاهرة: مكتبة عالم الكتب، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٢٣٢.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة: طبعة إدارة الثقافة العامة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، ج ٤، ص ١٦٣ - ١٦٦.

- المقريري: (٨٤٥هـ/١٤٤١م)

اعتبر خروج المغول سببه الخليفة الناصر لضرب الدولة الخوارزمية وقال تكراراً لما سبق من أقوال^(١).

وأما القسم الآخر الذي كان مؤيداً للخليفة الناصر فكان أهمهم:

- ابن جبير: (دخل بغداد ٥٨٠هـ/١١٨٤م)

"هو ميمون النقية عندهم، قد استسعدوا بأيامه رخاءً وعدلاً وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له"^(٢).

- الذهبي: (٧٤٨هـ/١٣٧٤م)

قال الذهبي ناقلاً عن المؤرخ موفق الدين عبداللطيف البغدادي: "لم يزل الناصر في عز وقمع الأعداء، ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه، ولا مخالف إلا دمه، ولا عدو إلا خذله، كان شديد الاهتمام بالملك، لا يخفى عليه كبير شيء من أمور رعيته، أصحاب أخباره في البلاد، كانت له حيل لطيفة، وخدع لا يفطن لها أحد، يوقع صداقة بين ملوك متعادين، ويوقع عداوة بين ملوك متوادين ولا يفطنون... ملأ القلوب هيبة وخيفة، حتى كان يرهبه أهل الهند، وأهل مصر، فأحى هيبة الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ثم ماتت بموته، إذا جرى ذكره بين الملوك والأكابر خفضوا أصواتهم إجلالاً له"^(٣).

- السيوطي: (٩١١هـ/١٥٠٥م)

وقد نقل السيوطي عن الذهبي الناقل أصلاً عن موفق الدين البغدادي^(٤).

^(١) المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، د. ط، القاهرة: دار الكتب، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، ج ١، ص ٤٥.

^(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، المساه رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، د. ط، بيروت: دار صادر، د.ت، ص ٢٠٣.

^(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ١٩٢.

^(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد بن محيي الدين، ط ٢، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ٥٠٠.

- ابن النجار: (١٢٤٣هـ/١٢٤٥م)

"دانت للناصر السلاطين، ودخل تحت طاعته المخالفون، ذلت له العتاه، وانقهرت بسيفه البغاه، واندحض أضداده، وفتح البلاد العديدة، وملك ما لم يملكه غيره، وخطب له بالأندلس والصين و كان أسد بين العباس تتصدع لهيبته الجبال، وتذل لسطوته الأفيال، وكان حسن الخلق، أطيّف الخلق، كامل الظرف، فصيحاً بليغاً، له التوقيعات المسددة والكلمات المؤيدة، كانت أيامه غرة في وجه الدهر، ودرة في تاج الفجر"^(١).

- ابن طباطبا: (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

"وكان يافعة زمانه ورجل عصره، في أيامه انقرضت دولة آل سلجوق بالكلية، وأنشأ الناصر من المبار والوقوف ما يفوق الحصر، وبنى من دور الضيافات والمساجد والربط ما يجاوز حد الكثرة، وكان كل وقته مصروفاً إلى تدبير أمور المملكة ... وكان من أفاضل الخلفاء وأعيانهم، بصيراً بالأمر مجرباً، سائساً مهيباً، مقداماً عارفاً شجاعاً متأدباً، حاد النظر متوقد الذكاء والفتنة، يفاوض العلماء مفاوضة خبير، ويبارس الأمور السلطانية ممارسة بصير، طالت مدته، وصفا له الملك .. كل أصحاب المناصب يخافه ويحاذره"^(٢).

- ابن الديبشي: (٦٣٧هـ/١٢٤٠م)

كال المديح والثناء على الخليفة الناصر بشكل مبالغ فيه^(٣).

^(١) ابن النجار : ذيل تاريخ بغداد، حيدر آباد، الدكن، المطبعة العثمانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٨٢.

^(٢) محمد بن علي بن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة: د . ن، ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، ص ٧٧.

^(٣) ابن الديبشي: ذيل تاريخ مدينة السلام، تحقيق، بشار عواد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج ٢، ص ٢٣٣.